حكايتـــي مع النحت

مارون الحكيم | من كتابه المرايا الخلفيّة

تعاملتُ مع الإزميل منذ الصغر. شغفتُ به كما أحببتُ ألعابي. حجز الإزميل الصغير، الذي سرقته من عدّة أخي المعمرجي، مكاناً بين مقتنياتي الطفولية من بلابل خشبية مزركشة وكُلَلٍ بلّورية متعددة الألوان. خبأته مع سيارات وشخوص معدنية وطائرات بلاستيكية وورقية في خزانة خاصة بي.

شكّل هذا الإزميل لعبتي وكنزي. لم أكن أدري بادئاً معنى هذا التعلق بقطعة من الفولاذ يمكنها اختراق سطح الحجر وحفره. ولم أكن أعي تأثيرات تلك الأداة العجيبة في مسار حياتي وتوجهاتها المستقبلية، بل كنت أحسّ فقط بانشداد شغوف بها كالتحامي الحميم بباقي ألعابي.

لا أنسى مشهد صخر ضخم «ينفلع» بمهدّة أبو يوسف أو أبو جورج أو معلّم حبّو ومعلّم عبدو. هؤلاء هم المقلعجية الذين راقبتهم منذ طفولتي وهم يستخرجون حجارة البناء من مقلع أخي منصور. كنت طفلاً بعمر العشر سنين أو أقل، أحمل كتابي، أطالع دروسي حين كنت أراقب احتيال هؤلاء الجبابرة لانتزاع صخرة عملاقة من باطن الأرض. يفرّغون التراب من حولها، يقدّرون قياساتها، يدرسون طبقاتها وحلولها (الحل هو الخط الفاصل بين طبقة جيولوجية وأخرى في الصخر)، لمعرفة كيفية زرع الأسافين الناجعة. إسفين «الشقل» هو الحفرة الأفقية التي يكوّرها المقلعجي بواسطة «القطاعة» وهي كناية عن مطرقة رأساها كالإزميل تنقر الصخر فتكوّره مكاناً، تدخله الأسافين أفقياً أو عمودياً، لفسخه وفلعه قسمين يفصلهما المقلعجي بواسطة المخل الضخم. ومن ثم يقطعهما شقفاً متفاوتة الأحجام والقياسات بحسب استعمالاتها. الكبيرة منها للأعمدة والعتبات، والمتوسطة للزوايا وبراطيش الشبابيك والأبواب (البرطاش هو العتبة السفلى) والصغيرة لحجارة مداميك الحيطان السالكة. عملية التقطيع هذه كانت تشدّني وتدهشني وبشكل خاص حين ينحت المقلعجي مقشاً (ثلم في الحجر بعرض خمسة سنتيمترات على الأكثر) بقطعة الصخر الكبيرة، بواسطة أدواته المختلفة: يبدأ بالبيك وهو أداة نحت كالمطرقة الكبيرة، مروّسة من جهتيها، وينهي بالقطّاعة. بعدها ينهال المقلعجي بتوجيه ضربات مهدّته الثقيلة (تصل أحياناً إلى خمسة عشر كيلوغراماً) المتوازنة، القوية، الصائبة، والموزعة بشكل دقيق متراصف على طول المقش. في ثوانٍ معدودات وبضربات قليلة لا تتعدى العشر، ينفلع الصخر قسمين. يكرر المقلعجي عمله على القطع الباقية لتصبح حجارة متقاربة الحجم والقياس والسماكة. بعدها تأتي عملية التصفيط (أي تقليل السماكات) بواسطة الشاقوف. بعد ذلك يذهب الحجر إلى البناء فيقصبه ناحتاً أطرافه وموازياً خطوطه. يشقع البناء هذه الحجارة لتتحول إلى بيوتٍ عادية أو قصورٍ ذات قناطر وشبابيك منحوتة ومزينة بعناصر زخرفية.

لقد استرسلت في شرح عملية استخراج الصخر وتقصيبه وبنائه، لكي الفت النظر إلى أهمية مهنة شاقة أصبحت من الماضي، ولكي أؤكد محاكاتي للمادة الصخرية منذ صغري ومدى تأثيراتها في توجهاتي الفنية في ما بعد. لقد شاهدت قساوة مهنة النحت، وشهدتُ عليها، وتمرست بها، وخبرت أسرارها وأسرار صخورها، بقساواتها وطراواتها، بنبراتها ورنّاتها، بألوانها وعروقها، بعنادها ورضوخها، بتقميشاتها ولمعانها، بحركتها وجمودها... ولكي أبيّن أيضاً مدى شغفي العميق، منذ الطفولة، بمواد الطبيعة من تراب وصخور ونبات، ومدى ارتباطي الوثيق بها، كمواد جامدة، عمّقت التصاقي بالفن وحفزتني للمضي في دروبه الوعرة اللذيذة.

في بداية الطريق كان الفن ولعاً ساذجاً، حائراً، ارتبط باللعب وببراءة الطفولة، وتحول في محطات لاحقة إلى تعلّق هادف وأكيد يستمد قراءاته الأولى من معارف بدأت تتكوّن وتتوضح من مرحلة النضج والالتزام. صار الفن قضية كيانية تملّكت وعيي الوجودي، فحرّضتني وحفزتني ودفعتني لسلوك الدروب والمراحل الفنية المتلاحقة، المتشابكة، المتلازمة والمتكاملة، فوصلت إلى ما توصلت إليه من إنجازات.

محاولاتي النحتية الأولى تلازمت مع اللعب بواسطة أدواتي البدائية والمواد الطبيعية. تابعت المسيرة متعمقاً باستعمال الأدوات الكهربائية والمواد النحتية المختلفة كافةً.

أَلِفْتُ معشر الصخر والرخام والخشب والطين. تطورت نظرتي إلى الفن. تشبثت به اكثر واكثر. صارت حياتي جزءاً من الفن وتحولتُ ناسكاً في معابده. وأضحت المنحوتات واللوحات وكل الأعمال الفنية ترانيم تناجي الخالق وتصبو نحو آفاق روحيّة نقيَة. لم تعد الأعمال محض أفعال ماهرة بحضورها ودقة تنفيذها وبراعة أساليبها. ولم يعد النحت حفلة مصارعة بين النحات والمادة الصخرية الخام، بل غدت المنحوتة فعل خلق بديعاً. وما المهارات والتقنيات العالية سوى دعائم تقوّي الأطروحات الجمالية الخالصة.

في هذا الجو العابق بسحر الجمال، تأخذني المخيّلة إلى عوالم خياليَّة يختلط فيها الواقع بالحلم محوّلاً المادة الهامدة إلى كائنات تهتزّ في عروقها نبرات الحياة. أتناول قطعة الحجر الصلب فتغدو بين يديّ كتلة من الطين اللزج الطري المطواع. تنتقل الأشكال والأحجام من المخيّلة توّاً نحو المادة الصلبة المتحولة، بفعل الحدس والعفوية وبمساعدة الأدوات والتقنيات واليد الخبيرة، منحوتات تضج بفيض الأحاسيس. عيناي ويداي تقود الإحساس إلى نهاياته المضيئة غير آبهة بمعوقات المحترف العابق بالغبار والضجيج، ضجيج أنّات الصخر، وتشظّي جموده المتحوّل إلى غيوم كثيفة من الغبار الأبيض الحاجب للرؤية. في هذه الحالة يتخدّر جسدي ويستيقظ مارد الخلق فيّ متحرراً من أسره وسباته ليوقظ بدوره الحياة في صخرة هامدة منذ دهور.

كل نقرة من إزميل أو ضربة من مطرقة أو خَرْقٍ لآلة، ترجّ كيان الصخر فتوقظه من عدمه وتقوده إلى ملاقاة الضوء. يشقّ الصخر طريق وجوده، مانحاً جموده كياناً آخر متحركاً في فضاءات العقول والأذواق والمشاعر.

خدوش الأزاميل، فرقعات المطارق، غبار الآلات وشقوقها، حزوز المبارد وخربشاتها، حفيف ورق الزجاج، مباضع جرّاح تنقذ المادة الجامدة من غياهب العدم. تتحرك ذرّاتها المتكاسلة فتقذف بها في آتون الحراك الحي.

هكذا تولد المنحوتة، من سحر اليد الرؤوفة، من صراخ الأدوات الجارحة، ومن أنين صخرتها الخاضعة. تحيا، متخايلة في العراء وتحت الضوء، آية تمجّد باريها.

«كـل نـقرة مـن إزمـيـل أو ضـربة من مـطـرقة أو خَرْقٍ لآلة، ترجّ كيان الصخر فتوقظه من عدمه وتقـوده إلى مـلاقـاة الـضـوء.»